تفاعلات الرياضة والسياسة فى السياقين الوطنى والدولى

د. إدريس لكرينى

أستاذ العلاقات الدولية وتحليل الأزمات،
مدير مختبر الدراسات الدستورية وتحليل الأزمات والسياسات، جامعة القاضى عياض، مراكش

شكّلت الملاعب الرياضية منذ القدم ملاذا للفرجة والبهجة، والهروب من الضغوط اليومية ومختلف المشكلات التى تواجه الأفراد، وكذا مناسبة لتطوير القدرات ولاستعراض المهارات، فى إطار من التنافس. فضلا عن كونها وسيلة للتفريغ والتسلية وإثبات الذات، فلا تخفى انعكاساتها على مستوى تربية الأفراد على قيم التسامح والحوار، والروح الرياضية، والإقرار بالأخطاء والسعى لتجاوزها. لذلك تعمل الكثير من الدول على إيلائها اهتماما كبيرا، من خلال توفير البنى التحتية وتنظيم اللقاءات والمباريات، ودعم الأندية الرياضية.

أمام الإشعاع الكبير الذى باتت تحققه الرياضة بصورها الفردية والجماعية عبر العالم، أصبحت تغرى رجالا ونساء بفرصها التى تتيح لهم تحقيق تطلعاتهم وطموحاتهم السياسية من خلال استثمار الإقبال الجماهيرى الواسع عليها. فيما أولت المنظمات الدولية من جانبها أهمية لهذا القطاع، وعيا بأدواره المفترضة فى تلطيف العلاقات بين الدول وتعزيز السلام، وتشجيع التواصل بين مختلف الشعوب. فى هذا المقال، سنتوقف عند أهمية الرياضة وعلاقتها بالسياسة والتنمية على المستويات الوطنية، قبل الانتقال إلى رصد توظيفاتها كعنصر من عناصر القوة الناعمة على المستوى الدولى، خاصة فيما يتعلق بإرساء السلم.

أولا- الرياضة والسياسة والتنمية:

توفر المناسبات الرياضية عائدات مالية ضخمة للدول، كما تشكل لحظة سانحة لتسويق الفرص الاستثمارية والسياحية للبلد، ما يعزز الاقتصاد ويدعم جهود التنمية، وهو ما تراهن عليه الكثير من الدول التى تستضيف فعاليات رياضية، كما هو الشأن بالنسبة لكأس العالم الذى يحظى باهتمام إعلامى وجماهيرى واسع. فقد أصبحت الكثير من الدول ترى فى الرياضة مقوما أساسيا ضمن عناصر القوة الناعمة التى كثيرا ما تستثمرها فى إطار تعزيز سياساتها الخارجية، على مستوى جلب الاستثمارات، والتعريف بحضارة وثقافة البلد، خاصة مع تزايد الاهتمام الإعلامى الدولى والوطنى بفعالياتها.

وقد استثمرت الكثير من الدول استضافة فعاليات نهائيات كأس العالم بشكل ذكى مكّنها من تحقيق إقلاع اقتصادى وتنموى، وهو ما تعكسه الكثير من التجارب، فقد اقترن التحول الاقتصادى والسياسى الذى ميَّز إسبانيا فى العقود الأخيرة بثلاثة أحداث رئيسية كان من ضمنها تنظيم كأس العالم لكرة القدم عام ١٩٨٢، إلى جانب وصول حكومة «فيليبى جونثاليث» إلى الحكم خلال السنة نفسها، والانضمام إلى المجموعات الأوروبية التى عُرفت فيما بعد بالاتحاد الأوروبى عام ١٩٨٦. فيما حققت جنوب إفريقيا عام ٢٠١٠ إيرادات ضخمة من هذا التنظيم، والأمر نفسه ينطبق على البرازيل التى تمكنت من إنعاش اقتصادها عام ٢٠١٤ بأكثر من ٣٠ مليار دولار من جراء هذا الاحتضان.

كما كسبت روسيا رهان تنظيم هذا الملتقى العالمى عام ٢٠١٨ بصورة ناجحة على عدة مستويات، فعلى المستوى الاقتصادى، تشير كل المعطيات والأرقام الصادرة فى هذا الخصوص إلى أن «موسكو» استثمرت إمكانات ضخمة

لتحديث الملاعب وتطوير البنيات التحتية من طرق وفنادق واتصالات ومواصلات، فيما بلغت واردات المونديال نحو ١٣,٥ مليار دولار. وعلى المستوى الاستراتيجى، استطاعت إلى حد كبير الترويج لبلد منفتح يساير التطورات العالمية فى أبعادها المختلفة، وتأكيد أن الحضور الدولى المتزايد لهذا البلد على مستوى تدبير عدد من القضايا والأزمات الدولية يجد سنده فى حالة الانتعاش الاقتصادى والاستقرار السياسى الذى شهدته البلاد(١).

من جهة أخرى، تحولت الملاعب الرياضية خلال العقود الأخيرة إلى فضاءات تعجُّ بالشعارات، والمطالب السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أبعادها الوطنية والدولية، ضمن استثمار ذكى للإشعاع المتزايد لعدد من الرياضات؛ كما هو الشأن بالنسبة لكرة القدم، وتوظيف المتابعة الجماهيرية الواسعة التى تحظى بها فى أوساط فئات مختلفة من المجتمع فى سياق المرافعة بشأن عدد من القضايا المجتمعية التى لا تحظى باهتمام كاف من قبل عدد من القنوات الإعلامية.

فكثيرا ما مثلت الميادين الرياضية منصات للترافع بشأن عدد من القضايا الدولية فى أبعادها البيئية والإنسانية والاجتماعية، والتعريف بمعاناة عدد من الشعوب، فى ارتباط ذلك بالإشكالات التى تطرحها قضايا الهجرة واللجوء، والفقر والتمييز العنصرى، بل إرسال خطابات تنبذ العنف والحروب، وتدعم التواصل والحوار بين الشعوب.

أما على المستويات المحلية، فقد أصبحت الكثير من المناسبات الرياضية تشكل فرصا لإطلاق شعارات ومطالب متصلة بقضايا الحريات وحقوق الإنسان، وغلاء الأسعار، وانتقاد أداء النخب الحاكمة. وقد زاد من فعالية ذلك، انتظام الجماهير المشجعة فى إطار مجموعات «الألتراس»، التى طورت من أساليب تشجيعاتها لفرقها المفضلة، مستثمرة فى ذلك الزخم الإعلامى الذى يرافق المنافسات الرياضية، والعدد الكبير لمنخرطيها الذى يضم مئات الآلاف أحيانا، وذلك برفع لافتات، وترديد شعارات وأغان، وعرض «تيفوهات»(٢) لا تخلو من إشارات ومعانٍ سياسية واجتماعية، تلقى أحيانا تفاعلا داخل المجتمع.

إن هذا التحول الذى شهدته وظائف الملاعب الرياضية فى عدد من الدول؛ بغض النظر عن إمكاناتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، سواء كانت متقدمة أو متخلفة، يطرح الكثير من الأسئلة حول العوامل والأسباب التى جعلت الكثير من الأشخاص من مستويات عمرية وطبقات اجتماعية مختلفة، يلجأون إلى الملاعب لتصريف مطالبهم وقضاياهم المختلفة من خلال المنافسات الرياضية.

مع الحديث عن مكانة الرياضة داخل المجتمعات، يطرح السؤال حول السبب الذى يدفع الشباب إلى الإقبال على الملاعب والأندية الرياضية مقابل العزوف عن الانخراط فى الأحزاب السياسية والمشاركة فى الانتخابات، وحتى الاهتمام بالشأن السياسى. ويبدو أن الكثير من هؤلاء الشباب مقتنعون أن انخراطهم فى نواد رياضية يتيح لهم فرصا واعدة لتأكيد الحضور وإبراز المواهب فى إطار قواعد رياضية تنافسية، أكثر منها لو انخرطوا فى أحزاب سياسية؛ حيث يغيب منطق الكفاءة لحساب أمور أخرى.

إن أول ملاحظة تبرز للعيان فى هذا السياق، هى أن الإقبال على الملاعب والمنتديات الرياضية، يقابله عزوف كبير عن الشأن السياسى وعن المشاركة السياسية بشكل عام، ما يحيل إلى وجود اختلالات تطول القنوات الوسيطة من أحزاب سياسية ونقابات وهيئات سياسية، يبدو أنها لم تعد قادرة أو مؤهلة لمواكبة معاناة وتطلعات الجماهير التى وجدت متنفسا فى الملاعب، مثلما وجدته أيضا فى شبكات التواصل الاجتماعى التى تحولت من آليات للتواصل والتعارف إلى قنوات للضغط والتأثير فى عدة مستويات، فيما بدأت الكثير من الدول تشهد تصاعدا للخطابات الشعبوية وللنخب المتطرفة التى استغلت الفراغ الناجم عن غياب مشروعات اجتماعية وثقافية تقودها نخب وازنة ومعتبرة على قدر من الكفاءة والمصداقية. وفى الوقت الذى يتم فيه الترويج للاعبين الرياضيين وبعض الفنانين، ويجعل منهم أبطالا وطنيين فى ظرف قياسى، يلاحظ فى مقابل ذلك تهميش ممنهج ضد العلماء والمثقفين والباحثين، والتعتيم على إنجازاتهم وإسهاماتهم فى تطوير المجتمعات.

إن التحول الكبير الذى شهدته الملاعب الرياضية من حيث تحولها إلى منصات للاحتجاج، يحيل -فى جزء كبير منه- إلى وجود ارتباك واضح على مستوى القنوات الوسيطة والنخب السياسية التقليدية التى لم تطور من أدائها وخطاباتها وأدوات اشتغالها؛ أخذا بعين الحسبان التطورات التى شهدتها المجتمعات فى عدد من المجالات والميادين، ومواكبتها للمتغيرات الدولية بصدد عدد من القضايا والأولويات(٣).

إن استثمار الجماهير للملاعب الرياضية كإطار للتعبير عن أحلامها وآمالها، والتنفيس عن معاناتها ورغباتها، هو بمنزلة رسالة واضحة إلى مختلف القنوات الوسيطة من أحزاب سياسية ونقابات ومؤسسات إعلامية لتطوير أدائها، وانفتاحها على قضايا المجتمع، وعلى تلك التى يفرضها المحيط الدولى، وذلك بالعودة إلى عمق المجتمع والالتزام بمهامها ووظائفها، ومسئولياتها تجاهه، وذلك على مستوى التنوير والتأطير والتعبئة والتنشئة الاجتماعية. كما يقتضى الأمر مساءلة الدول نفسها بصدد توفير هامش مريح للتحرك أمام هذه القنوات، ذلك أن الفراغ الذى تخلفه على مستوى عدم الاستثار بمهامها، هو خطر حقيقى يتربص بالمجتمع والدولة.

ثانيا- الرياضة وفرص تعزيز السلام العالمى:

أضحى تحقيق السلام فى الوقت الراهن مطلبا ملحًّا، فى ظل تفاقم الصراعات والنزاعات الدولية وبروز أسلحة فتاكة، إضافة إلى تعقد القضايا الدولية، وتنامى المخاطر الدولية العابرة للحدود (تلوث البيئة، وندرة المياه، والإرهاب، والأمراض الخطيرة، والجرائم الرقمية). فقد تبين تحت وقع الكثير من الأحداث والنزاعات والأزمات أن السبل التقليدية لتعزيز السلام لم تعد كافية، وهو ما أصبح يفرض ضرورة بلورة سبل مستدامة ومتطورة ومنفتحة لمواجهة هذه التهديدات المعقدة.

وقد شهد مفهوم القوة بوصفها تحيل القدرة إلى التأثير فى القرارات والآراء والسلوكيات الدولية، تطورا كبيرا فى العلاقات الدولية، ووعيا بالكلفة التى ينطوى عليها استخدام القوة الخشنة فى سبيل تحقيق الأهداف والمصالح، فقد بدأ الميل بشكل كبير إلى توظيف آليات القوة الناعمة بعناصرها الثقافية، والفنية، والروحية، والعلمية، والرياضية فى تحقيق هذه الرهانات، على أساس أنها تقوم على الإغراء والإقناع بدل الإكراه والزجر.

كما أن وظيفة الدبلوماسية، فى الوقت الراهن، أضحت فنا وعلما، ولم تعد مقتصرة على نسج وتعزيز العلاقات التقليدية، بل أصبحت تستأثر بمجموعة من المهام الجديدة التى فرضها تطور العلاقات الدولية، من قبيل الإسهام فى تدبير الأزمات المختلفة، وجلب الاستثمارات، وتشجيع السياحة، وتعزيز المصالح العليا للدولة، وكذا الإسهام فى حفظ السلم والأمن الدوليين فى عالم يعج بالتحديات والمخاطر. فى هذا السياق، تبرز أهمية توظيف المداخل الناعمة لكسب هذا الرهان الإنسانى، سواء تعلق الأمر بالفن، أو الثقافة، أو الرياضة.

ولا تخفى أهمية الرياضة فى تلطيف الأجواء السياسية، وتفريغ الطاقات وتنشئة الفرد على التعايش داخل المجتمع، وفى هذا السياق أضحت كرة القدم من أكثر الألعاب شعبية وانتشارا؛ تستقطب اهتمام مختلف الفئات داخل المجتمع: نساء ورجالا؛ فقراء وأغنياء؛ كبارا وصغارا، وكذلك اهتمام وسائل الإعلام المحلية والدولية.

ويشرف الاتحاد الدولى لكرة القدم (الفيفا) الذى أُسس عام ١٩٠٤ على ٢١١ اتحادا وطنيا فى هذا الصدد، فيما تصاعدت العائدات المالية لهذه الرياضة التى أصبحت تفوق بمواردها ميزانيات عدد من الدول؛ حيث تتعزز خلال بطولات كأس العالم (مداخيل النقل التلفزى، والإشهار وتذاكر دخول الملاعب..)، وهو ما جعل هذه اللعبة الشعبية تغرى بفرصها الكثير من السياسيين والمستثمرين على امتداد مناطق مختلفة من العالم. هكذا، أضحت الكثير من الدول تستثمرها كما هو الشأن بعدد من الرياضات الأخرى، كسبيل لتعزيز سياستها الخارجية(٤).

وعقب حصول المغرب على ميداليتين فى ألعاب القوى، بالألعاب الأولمبية/ لوس أنجلوس عام ١٩٨٤، عدَّ الملك الراحل الحسن الثانى أن المغرب أصبح معروفا أكثر بالبطلين «سعيد عويطة»، و«نوال المتوكل». كما أسهم وصول المنتخب المغربى لكرة القدم إلى الدور نصف النهائى ضمن فعاليات كأس العالم عام ٢٠٢٢ فى ارتفاع عدد السياح الذين زاروا المغرب، حيث تتيح المناسبات الرياضية فرصا للقاء الجماهير من مستويات اجتماعية وتعليمية وأعراق وديانات مختلفة، كما تسمح أيضا بالتسويق للمنتجات الصناعية الاستهلاكية، وتمرير الرسائل والقيم، والإسهام فى التنشئة الاجتماعية(٥).

وقد عرفت الكثير من الدول والمجتمعات برياضييها، كما استطاعت الكثير من البلدان تحقيق مكتسبات عدة بفضل الرياضة كانت لها انعكاسات إيجابية على مناطق وفئات اجتماعية مختلفة.

إن الحصول على جوائز رياضية عالمية يتيح التسويق للبلد وصورته الحضارية، كما لا تخفى أهمية انخراط عدد من الأندية الرياضية الدولية أو بعض الرياضيين المشهورين فى بلورة مبادرات إنسانية تدعم الوعى بمآسى بعض الفئات الاجتماعية المظلومة، أو المهمشة، أو بمخاطر بيئية تهدد الإنسانية، أو بمعاناة إنسانية مختلفة (تمييز عنصرى، فقر، حروب، أمراض..)، بما يسهم فى لفت النظر إلى هذه القضايا، وتشكيل رأى عام دولى واسع مواكب ومؤثر فى هذا الشأن.

وقد تنبهت الكثير من المنظمات الدولية، وعلى رأسها الأمم المتحدة، إلى الانتشار الكبير الذى أصبحت تحظى به الرياضة بمختلف أصنافها فى أوساط الشعوب، والاهتمام الذى تلاقيه فى الأوساط الإعلامية والاقتصادية والسياسية، بما يجعلها قادرة على تلطيف العلاقات بين الدول، والتقريب بين الشعوب وخدمة السلام العالمى، فى عالم متشابك ومثقل بالتحديات.

وقد سبق للجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة أن عدَّت ضمن قرارها رقم ١/٦٠ لعام ٢٠٠٥ أن بإمكان الرياضة أن تسهم فى تحقيق الأهداف الإنمائية، قبل أن تجعل من تاريخ ٦ أبريل من كل عام يوما دوليا للرياضة، من أجل التنمية والسلام بمقتضى قرارها رقم ٢٩٦/٦٧ لعام ٢٠١٣. ومثلت بطولة العالم لكرة الطاولة (البينج بونج) التى انعقدت باليابان عام ١٩٧١ مناسبة جيدة لتلطيف الأجواء المشحونة بين الصين الشعبية والولايات المتحدة الأمريكية وإرساء

أرضيـة للحـوار بينهما، بعـد قطيعة دامت أكثـر من عقدين، ضمن ما سمى حينئذ بدبلوماسية «البينج بونج».

وقـد حاولت الصيـن استثمار نجاحها فـى تنظيم الدورة الأولمبية ببكين عام ٢٠٠٨، وكذا تقدمها فى ترتيب الميداليات المحصـول عليها، لتسويق صورة بلـد منفتح ومتطور، والأمر نفسـه بالنسبـة لروسيا خـلال استضافتها لفعاليـات بطولة كأسـ العالم فى كـرة القدم لعـام ٢٠١٨. ورغـم النبل الذى تنطـوى عليه الرياضة فى كثير من الأحيان، فكثيرا ما تستغل الملاعـب لتكريس التعصب، ونشر الكراهيـة والأحقاد، فقد وظفهـا كل من «موسولينى» و«هتلـر» بشكل مكثف فى الترويج لنظاميهما الفاشى والنازى.

وخـلال فترة الحرب البـاردة بصراعاتهـا الأيديولوجية والعسكريـة والاقتصاديـة، سعـت كل من الولايـات المتحدة والاتحاد السوفيتى، السابق، إلى توظيف عدد من المناسبات الرياضيـة فى تأجيـج هذا الصـراع. كما استُغلـت الرياضة لتعبئـة الأفـراد وتوجيههـم وشحنهـم وإلهائهـم بصراعات و«معـارك وهمية» أسهمت فى تضخيمها وسائل الإعلام(٦)، وهو مـا كان له تداعياته بالسلب فى مسـار بعض المناسبات الرياضيـة، وأدى إلـى تحريفهـا عن أهدافهـا النبيلة، وجعل منهـا وسيلة لتمرير المواقـف السياسيـة، واستغلال مشاعر الجماهير لأغراض سياسية ضيقة.

ختامـًا:

أضحـت الرياضة أحـد روافد التنمية، وغدَتْ قطاعا منتجا، بالنظر إلى الشعبيـة العالمية التى تحظى بها، كما استثمرتهـا الكثيـر من الـدول والمنظمات فى ترسيخ قيـم تربوية وإنسانيـة نبيلة، وتحقيق مكتسبـات اقتصادية. وتتزايـد الحاجـة إلـى توظيف الرياضة كمدخـل لإرساء سـلام عالمى مستدام كفيـل بتذليل العقبـات بين الدول، وتعزيز التواصل بين الشعوب.

إن الظرفيـة الدوليـة الراهنـة بتحدياتهـا وإشكالاتها ومخاطرها العابـرة للحدود، تستوجـب أكثر من أى وقت مضـى، توظيـف المجتمع الدولى عددا من مقومات القوة الناعمـة كالرياضة، فى سبيل ترسيخ علاقات دولية بحس إنسانى يتجاوز نقائص الدبلوماسية الرسمية.

الهوامش:

١. د. إدريس لكرينى: روسيا ورسائل المونديال، مجلة درع الوطن، الإمارات العربية المتحدة، العدد ٥٥٩، أغسطس عام ٢٠١٨، ص٥.
٢. جمـع «تيفـو»، وهو مصطلح يحيل إلى الرسومـات واللوحات الفنية التى يشكلها أنصار الفـرق الرياضية (الألتراس) داخل مدرجات الملاعب بواسطة صفائح بلاستيكية وبالونات وألبسة ملونة.
٣. د. إدريس لكرينى: الرياضة بين الفرجة والترافع، صحيفة الخليج، الإمارات العربية المتحدة، بتاريخ ٣٠ يوليو ٢٠٢٣.
٤. يشار إلى أن الولايات المتحدة أحدثت قسما للدبلوماسية الرياضية بعد أحداث ١١ سبتمبر كسبيل لاستهداف الشباب.
٥. نشير فى هذا السياق، إلى الحملات التى قادها اللاعبان الشهيران فى كرة القدم: «بيليه» ضد الفساء، و«مارادونا» ضد المخدرات.
٦. يمكـن الإشـارة فـى هذا السيـاق إلى مقابلة كـرة القدم بين مصـر والجزائر فى السودان عـام ٢٠٠٩، لمزيد مـن التفاصيل فى هذا الخصوص، يراجع، إدريس لكرينى: معارك وهمية فى زمن الانكسارات والهزائم العربية، مركز الجزيرة للدراسات، ٤ ديسمبر ٢٠٠٩.